خامسا : الفاصلة القرآنية

يقصد بالفاصلة القرآنية ذلك اللفظ الذي ختمت به الآية ، فكلما سموا ما ختم به بيت الشعر قافية ، أطلقوا على ما ختمت به الآية الكريمة فاصلة . وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين " حدثوا أن رجلا في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه – قرأ { فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم } فقال أعرابي لا يكون ، وفي رواية أخرى أنه قال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم ، لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه ' وروي أن أعرابياً سمع رجلا يقرأ { وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر } بفتح الكاف ، فقال الأعرابي : لا يكون فقرأها عليه بضم الكاف (٢) وكسر الفاء فقال الأعرابي يكون "") . هذا ما ذكره الأعرابي بطبعه وسليقته وسجيته.

ويلاحظ أن بعض هذه الفواصل القرآنية يمكن أن يدركه القارئ بأدنى تأمل ، فهو لا يحتاج إلى كثير فكر ، وكبير عناء ، على حين نجد بعضها الآخر بحاجة إلى تدبر وتأمل .

فنمن النمط الأول بعض الفواصل التي ادعت دائرة المعارف البريطانية أنها منقطعة عما قبلها ، لا صلة لها بها ألبتة

١. في قوله تعالى { كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون } [البقرة : ٢١٦] .

أي منصف ، بل أي عاقل يدعي أن هذه الفاصلة غير متصلة بما قبلها ، بل أي فاصلة يمكن أن تصلح بدل هذه الفاصلة ؟ يخاطب الله المؤمنين ، وقد كتب عليهم القتال والجهاد ، ويبين أن أمر المستقبل لا يدركونه هم ، فربما يكرهون شيئا يكون فيه خيرهم ، وربما يحبون شيئا تكون فيه نهايته شرا لهم ، ووبالا عليهم ، إن الله وحده هو الذي يعلم ذلك .

أي فاصلة تصلح لهذه الآية غير التي ختمت بها (والله يعلم وأنتم لاتعلمون)

٢. وفي السورة نفسها تذكر الآيات بعض أحكام الطلاق ، وتنهى أولياء النساء أن يمنعونهن من الرجوع إلى أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، فبين لهم أن ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم والآخر ، وأن ذلكم هو أزكى لهم وأطهر وتختم الآية (والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

قل لي بربك أي فاصلة يمكن أن تصلح لهذه الآية الكريمة ؟ وهؤلاء الإخوة والاباء يريدون أن يمنعوا أخواتهم أو بناتهم من الرجوع إلى أزواجهن ، وإنما يريدون ذلك أنفة واستجابة لدواعي الحمية أو انتقاماً من أولئك الأزواج ، من غير تفكير في النتائج والعواقب التي يمكن أن تنتج عن مثل هذا التصرف الخاطئ ، ما نظن أن هناك فاصلة ترجع أولئك الأولياء إلى رشدهم ، وتخوفهم من عواقب تصرفاتهم ، أجدى وأولى مما ختمت به الآية الكريمة .

أما النوع الثاني ، وهو ما يحتاج إلى تدبر وتأمل ، فمن هذا القبيل : –

١. قال تعالى في سورة السجدة ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ٢٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۖ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٦-٢٧] ، فقد ختمت الآية الأولى بـ (يسمعون) والثانية بـ (يبصرون) فما سر ذلك ؟ ، لن يحتاج الأمر منك إلى كثير تأمل ، فقد تحدثت الآية الأولى عن القرون المهلكة من قبل هؤلاء ، فهو حديث التاريخ –

إذن – وتحدثت الآية الثانية عما يشاهدونه على هذه الأرض ، كيف ينزل عليها الماء فتنبت الزرع متاعا لهم ولأنعامهم ، وأمر التاريخ لا ريب – يسمع سماعا ،ولذا ختمت بـ(يسمعون) ، ولكن ما يشاهدونه يبصرونه إبصاراً ، ولذا ختمت بـ (يبصرون)

قل لي بربك أي دقة تلك التي في الآيتين الكريمتين " إنه تنزيل رب العالمين"

٢. في سورة العنكبوت نقرأ هذه الآيات { مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كان يعلمون } [آية : ٤١] وبعد هذه الآية نقرأ قوله الله ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] .

فكر فيما عرفه الناس من أمر العنكبوت اليوم ، من حيث قوة خيوطه ، ومن حيث الفوضى الأسرية ، – إن صح التعبير – والتمزق العائلي وعدم النظام ، فلقد قالوا إن خيوط العنكبوت أقوى من خيوط الحرير ، ولكن الفوضى تدب في بيته ، فربما أكلت الأنثى زوجها ، وبالتالي فالفوضى التي تدب في بيت العنكبوت لا مثيل لها البتة في بيت آخر ، أليس ذلك يحتاج إلى علم (لو كانوا يعلمون) ، (وما يعقلها إلا العالمون) فانظر كيف ختمت الفاصلة بذكر العالمين لأن قضية العنكبوت لا يدركها إلا أولئك .

٣. ولقد نبه الزمخشري وغيره من الأئمة إلى ما في قوله { وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون } [البقرة : ١١ ، ١٢] ، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] : فلما

كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض وتلك قضية تتعلق بالحواس الظاهرة ، ختمت بقوله " ولكن لا يشعرون " لأن المشاعر هي الحواس ، ولما كانت القضية الثانية تتعلق بالسفه ، وهو الجهل ناسب أن تختم بالعلم.

قال الزمخشري – رحمه الله – فإن قلت :فلم فصلت هذه الآية بـ (لا يعلمون) والتي قبلها بـ (لا يشعرون) ؟ قلت : لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق ، وهم على الباطل ، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة ، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات ، معلوم عند الناس ، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم ، وما كان قائما بينهم من التغاير والتناحر والتحارب والتحازب ، فهو كالمحس المشاهد ، ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل ، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له.

٤. كما نبهوا إلى هذه الآيات في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ [الأنعام: ٩٧-٩٩] وختمت الآية بقوله { إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون} فلما كانت قضية النجوم مما يعلمه العرب ويمكن أن تعرفه الأمم الساذجة كذلك ختمت بقوله " يعلمون " ولما كانت قضية النفوس دقيقة ، لا يطلع عليها إلا الخاصة ، ختمت بقوله تعالى " يفقهون " ؛ لأن الفقه أخص من العلم ، فهو العلم بدقائق الأمور ، ولما كانت الآية الثالثة تظهر فيها دلائل القدرة الإلهية ختمت بقوله سبحانه " يؤمنون " .

وأخيراً نذكر لك هذه الفاصلة ، وهي في قوله سبحانه وتعالى حديثاً عن السحرة في سورة طه ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠] مع أن غيرها من الآيات قدم فيها موسى ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧-٤٨] يقول الدكتور فضل عباس فذهب بعضهم إلى أن موسى أخر في هذه الآية مراعاة لفواصل السورة ، حيث أن السورة كلها وهي سورة طه تنتهي بهذه الفاصلة ، ولقد قلت لكم من قبل ، إننا مع تقديرنا لجمال الإيقاع وفنية الجرس ، لكننا لا نراه السبب الذي من أجله جيء بهذه الفاصلة بل لابد من سبب آخر يتصل بالمعنى والسياق .

وذهب بعضهم إلى أن هذه الآية جاءت هكذا ؛ لأنها تحكي لنا ما قاله السحرة فبعضهم قال (رب موسى وهارون) وبعضهم قال (رب هارون وموسى) فحدثتنا كل آية عن فريق من أولئك المؤمنين ، ونرى أن هذا لا يقدم لنا حلا مقبولا ، ولا يعطينا جوابا مقنعاً ، فالتساؤل لا يزال باقيا ، لماذا قدم هارون في سورة طه ، وأخر في غيرها من السور القرآنية ؟ إن الأمر – إذن – يحتاج إلى فكر وبحث الذي يبدو لي –والله أعلم بما ينزل – أن سورة طه هي السورة الوحيدة التي حدثتنا عما كان من موسى عليه الصلاة والسلام من خوف ، وكان حريا به أن لا يكون منه ذلك ، فهارون أولى بالخوف من موسى عليهما الصلاة والسلام ، لأنه لم يشاهد ما شاهده موسى ، ولم يشرف بمناجاة الحق ، قال تعالى { فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلي } [طه : ٦٧] فكان حريا أن يكون رابط الجأش ثابت الجنان . من أجل ذلك يلوح لي أن هارون عليه الصلاة والسلام قدم في هذه السورة، وهي قيمة قرآنية عظيمة حري بنا أن نقف عندها ونتدبرها وهي تقدير كل عامل بعمله.